كيف صار البحر ملحا

قصة خرافية بقلم المرحومة السيدة ودودة الصدر

حَدَثَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ ، أَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ رَجُلَانِ مِنَ الصَّيَّادِينَ بِجِوَارِ الْبَحْرِ ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا غَنِيًّا وَالْآخَرُ فَقِيرًا . وَكَانَ الْغَنِيُّ يَعْطِفُ دَائِمًا عَلَى الْفَقِيرِ ، وَيُسَاعِدُهُ كُلَّمَا احْتَاجَ لِشَيْءٍ . وَلَكِنَّ طَلَبَاتِ الْفَقِيرِ كَثُرَتْ وَتَكَرَّرَتْ ، حَتَّى ضَجَّ الْغَنِيُّ ، وَقَالَ لَهُ : « لَا أُودُّ أَنْ أَرَاكَ بَعْدَ الْيَوْمِ فَاذْهَبْ إِلَى حَيْثُ ... » . فَرَجَعَ الْفَقِيرُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي الذَّهَابِ إِلَى « حَيْثُ » . وَلَكِنَّهُ أَيْقَنَ أَنَّهُ لَنْ يَجِدَ « حَيْثُ » هَذَا فِي بَلْدَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ بِهِ مِنْ قَبْلُ . فَصَمَّمَ عَلَى أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ فِي بِلَادِ اللهِ الْوَاسِعَةِ .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي قَامَ مُبَكِّرًا ، وَرَكِبَ مَرْكَبًا مِنْ مَرَاكِبِ الصَّيْدِ ، فَسَارَتْ بِهِ تَقْطَعُ الْبَحْرَ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَزِيرَةٍ صَغِيرَةٍ . وَمَا كَادَ يَضَعُ قَدَمَيْهِ عَلَى الشَّاطِئِ ، حَتَّى أَحَاطَ بِهِ آلَافٌ مِنَ الْأَقْزَامِ لِيُشَاهِدُوهُ . وَسَارُوا بِهِ إِلَى مَلِكِ الْجَزِيرَةِ . وَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ لَهُ : « مَا الَّذِي أَتَى بِكَ إِلَى هُنَا ؟ » قَالَ : « جِئْتُ أَبْحَثُ عَنْ .. حَيْثُ ... » فَقَالَ : « إِنَّا لَا نَعْرِفُهُ ، وَلَكِنِ امْكُثْ عِنْدَنَا بِضْعَةَ أَيَّامٍ ضَيْفًا عَلَيْنَا ، لِيُشَاهِدَكَ أَهْلُ مَمْلَكَتِنَا » ثُمَّ أَمَرَ بِإِحْضَارِ الطَّعَامِ ، وَكَانَ يَكْفِي لِمِائَتَيْ شَخْصٍ مِنَ الْأَقْزَامِ ،

أحاط به آلاف من الأقزام ليشاهدوه . . .

فَأَكَلَهُ الضَّيْفُ كُلَّهُ . فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِغَيْرِهِ ، ثُمَّ بِغَيْرِهِ ، فَأَتَى عَلَيْهِ جَمِيعِهِ . فَانْزَعَجَ الْمَلِكُ ، وَخَافَ عَلَى مَمْلَكَتِهِ أَنْ يَأْكُلَهَا هَذَا الْمَارِدُ ، وَقَالَ لَهُ : « الْأَوْفَقُ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى .. حَيْثُ ... » فَقَالَ : « كَلَّا ! لَقَدْ بَدَأْتُ أَنْ أُحِبَّكُمْ . وَإِنِّي مَسْرُورٌ مِنْ ضِيَافَتِكُمْ ، وَسَأَبْقَى

عِنْدَكُمْ مُدَّةً طَوِيلَةً أُسَاعِدُكُمْ عَلَى إِصْلَاحِ مَمْلَكَتِكُمْ . » فَاسْتَشَارَ الْمَلِكُ زُعَمَاءَ الْأَقْزَامِ . فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ وُجُودَ ذَلِكَ الْمَارِدِ الْجَبَّارِ خَطَرٌ عَلَى الْمَمْلَكَةِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ التَّخَلُّصُ مِنْهُ بِأَيِّ ثَمَنٍ ، حَتَّى لَوْ أَدَّى الْأَمْرُ لِإِعْطَائِهِ أَثْمَنَ شَيْءٍ فِي الْمَمْلَكَةِ — وَهِيَ الطَّاحُونَةُ الْعَجِيبَةُ .

فَدَعَاهُ الْمَلِكُ . وَقَالَ لَهُ : « إِنِّي أَشْكُرُكَ عَلَى شُعُورِكَ الطَّيِّبِ نَحْوَنَا . وَلَكِنَّا قَانِعُونَ بِحَالَتِنَا ، وَقَادِرُونَ عَلَى إِصْلَاحِهَا . فَارْحَلْ إِلَى .. حَيْثُ ... وَإِكْرَامًا لَكَ ، سَنُقَدِّمُ لَكَ هَذِهِ الطَّاحُونَةَ هَدِيَّةً مَلَكِيَّةً مِنَّا . » فَقَالَ : « وَمَا فَائِدَةُ هَذِهِ الطَّاحُونَةِ ؟ » قَالَ الْمَلِكُ : « إِنَّهَا أَعْجَبُ طَاحُونَةٍ فِي الْعَالَمِ . فَإِذَا رَغِبْتَ شَيْئًا ، يَكْفِي أَنْ تَقُولَ لَهَا : أَطْحَنِي أَيَّتُهَا الطَّاحُونَةُ الصَّغِيرَةُ ، وَأَطْحَنِي سَرِيعًا . فَتَطْحَنُ بِاسْتِمْرَارٍ وَتُخْرِجُ مَا طَلَبْتَ مِنْهَا ، إِلَى أَنْ تَقُولَ لَهَا كَلِمَةَ السِّرِّ فَتَقِفَ . » قَالَ : « وَمَا كَلِمَةُ السِّرِّ ؟ » فَأَسَرَّهَا لَهُ الْمَلِكُ فِي أُذُنِهِ . فَقَالَ : « دَعْنِي أُجَرِّبْهَا . » ثُمَّ أَخَذَهَا ، وَسَارَ إِلَى الشَّاطِئِ ، وَقَالَ لَهَا : « أَطْحَنِي أَيَّتُهَا الطَّاحُونَةُ الصَّغِيرَةُ ، أَطْحَنِي سَرِيعًا ، وَأَخْرِجِي لِي سَفِينَةً كَبِيرَةً . » فَأَخَذَتْ تَطْحَنُ وَتَطْحَنُ ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ تَرْكِيبِ الْقُلُوعِ . فَقَالَ لَهَا كَلِمَةَ السِّرِّ ، فَسَكَتَتْ . ثُمَّ حَمَلَهَا ، وَرَكِبَ السَّفِينَةَ الْجَدِيدَةَ ، وَوَدَّعَ بِلَادَ الْأَقْزَامِ عَائِدًا إِلَى بَلْدَتِهِ .

وَهُنَاكَ اسْتَقْبَلَهُ أَهْلُهَا

بمظاهرة كبيرة ؛ لأنهم لم يروا في حياتهم سفينة أجل من سفينته . ولما نزل أخذ الطاحونة إلى منزله . وفي الليل خرج بها إلى جهة خالية في ضواحي البلدة ، وقال لها : « أطحني ، أيتها الطاحونة الصغيرة ، أطحني سريعاً ، وأخرجي لي قصراً جميلاً . » فأخذت تطحن وتطحن ، إلى أن فرغت من بناء السور . فهمس لها كلمة السر ، فوقفت . وفي الليلة التالية أخذها إلى الفضاء المجاور للقصر ، وقال لها : « أطحني أيتها الطاحونة الصغيرة ، أطحني سريعاً ، وأخرجي لي مزرعة كبيرة بمواشيها . » فأخذت تطحن ، وتخرج حقولاً خضراء ، وحدائق من الفاكهة والأزهار ، وبقراً وجاموساً وغنماً ، وخيولاً وجميراً ، وطيوراً متعددة الأنواع . ولما فرغت من عمل آخر عش للطيور ، همس لها كلمة السر فوقفت . وهكذا استمر يأمر الطاحونة الصغيرة ، فأخرجت له فلاحين للمزرعة ، وخدماً وعبيداً لقصره ، بعد أن فرشته له بأثمن الأثاث . وأخرجت له نقوداً وجواهر وحلياً نادرة المثال .

وذات يوم زاره صديقه الغني ، وسأله عن سر هذه الثروة الواسعة ، فأخبره بأمر الطاحونة . وقال له : « إنها أعجب طاحونة في العالم ، ويكفي أن تقول لها : « أطحني أيتها الطاحونة الصغيرة ، أطحني سريعاً وأخرجي كذا . . . فتطحن وتطحن حتى . . . » فقاطعه الصديق قائلاً : « إن هذا عجيب حقاً ! وإني أحب أن أجربها ، فهل تسمح بإعارتها لي ؟ » فقال : « بكل سرور ! » وأعطاها له ، ولكن نسي أن يقول له كلمة السر . فأخذها صاحبه وانطلق إلى منزله . وفي طريقه قابل جماعة من العمال يحملون أوعيتهم لجلب غذائهم . فناداهم وقال للطاحونة : « أطحني أيتها الطاحونة الصغيرة ، أطحني سريعاً ، وأخرجي عدساً مطبوخاً . » فأخذت تطحن ، وتخرج عدساً لم يذق أشهى منه في حياته . وملأ العمال أوعيتهم . ثم قال لها : « اسكتي أيتها الطاحونة الصغيرة » ، فلم تسكت . فقال : « كفى كفى أيتها الطاحونة الصغيرة ! » فلم تسكت . فقال : « أرجوك أن تسكتي أيتها الطاحونة الصغيرة ! » فلم تسكت . وهكذا استمر يتوسل إليها ، ولكن الطاحونة استمرت تطحن وتطحن ، حتى كونت بركة كبيرة من العدس المطبوخ . فخاف ، إذا استمر الحال ، أن تغرق البلد كلها في العدس . فجرى إلى صاحبه ، وأخبره بالأمر . وعاد هذا معه ، وكانت البركة قد كبرت واتسعت ، حتى أنهما اضطرا أن يسبحا في العدس ، ليصلا إلى الطاحونة الصغيرة .

وهناكَ همَسَ صاحبُها لها كَلِمةَ السِّرِّ ، فوقفَتْ عنِ الطَّحْنِ . فقالَ لهُ صاحبُهُ : « أشكرُكَ ، ويكفِي ما أصابَنِي منَ الفزَعِ . فخُذْ طاحونتَكَ ، فلا حاجةَ لِي بها . »

ومرَّتِ الأيامُ ، إلى أنْ أتَى إلى البَلْدةِ تَجَّارٌ مَشْهُورٌ ، جابَ البِحارَ القريبةَ والبعيدةَ . وكانَ صَدِيقاً قديماً لِصاحبِ الطَّاحونةِ . فزارَهُ فى قصرِهِ الجميلِ ، وأخَذَ يُحدِّثُهُ عنْ عجائبِ الدُّنيا ، ومَا شاهدَهُ فِى أسفارِهِ البعيدةِ . فقالَ لهُ : « إنَّ كلَّ ما ذكَرْتَ عجيبٌ حقًّا ، ولكنْ أعْجَبُ منْ هذا طاحونَتِى الصَّغيرةُ هذه ! فإنَّكَ إذا قُلْتَ لها : اطْحَنِي كذَا أيَّتُها الطَّاحونةُ الصَّغيرةُ ، واطْحَنِي سريعاً ، فإنها تطحَنُ وتطْحَنُ . . . » فقاطَعَهُ قائلا : « إنها حقًّا غريبةٌ ! ويَسُرُّنِى لوْ أعرْتَها لِى مُدَّةً منَ الزَّمنِ ، لأُجرِّبَها ، وأُعيدَها لكَ . » فابْتَسَمَ صاحبُ الطَّاحونةِ ، وقال : « بكُلِّ سُرورٍ . » ثمَّ حَمَلَها التَّجَّارُ قبلَ أنْ يعْرِفَ كلمةَ السِّرِّ ، وانطلقَ إلى سفينتِهِ ، وأبْحَرَ بها . وفِى أثناءِ سفرِهِ ، قامَتِ الزَّوابعُ والأعاصيرُ فى البحْرِ . فضَلَّ الطَّريقَ ، ولمْ يَصِلْ إلى البِلادِ التى كانَ يقْصِدُها . وقلَّتِ المُؤنةُ ، ونَفِدَ ما عِنْدَهُ منَ المِلْحِ . وكانَ ذلكَ شاقًّا عليهِ وعلَى البَحَّارةِ . فتَذَكَّرَ الطَّاحونةَ ، فأخْرَجَها إلَى سَطْحِ السفينةِ ، وأحضَرَ صَناديقَ المِلْحِ الفارغةِ . ثمَّ قال لها : « اطْحَنِي أيَّتُها الطاحونةُ الصغيرةُ ، اطْحَنِي سَرِيعاً ، وأخْرِجِي مِلْحاً . » فأخْرجَتْ مِلْحاً أبيضَ ناعِماً ، حتى امْتَلأتِ الصناديقُ . فقال لها : « اسْكُتِي أيَّتُها الطَّاحُونَةُ الصَّغيرةُ » ، فلمْ تسكُتْ . فقال : « كَفَى كَفَى ، أيَّتُها الطاحونةُ الصَّغيرةُ » ، فلمْ تسْكُتْ . فقال : « أرْجوكِ أنْ تَسْكُتِي أيَّتُها الطاحونةُ الصغيرةُ ! » فلمْ تَسْكُتْ . وهَكذَا اسْتمرَّ يتوسَّلُ إليْها ، ولكِنَّ الطَّاحونةَ اسْتَمَرَّتْ تطحنُ وتطْحَنُ . وَتَرَاكَمَتْ أكْوامُ المِلْحِ على سَطْحِ السفينةِ ، حتى أخَذَتْ تَغُوصُ فى الماءِ منْ ثِقَلِ حِمْلِها ، وأشْرَفَتْ عَلَى الغَرَقِ .

وأخيراً ، خطَرَتْ للبَحَّارِ فِكْرَةٌ جديدَةٌ ، بَعْدَ أنْ أعْيَتْهُ الحِيَلُ فِى اسْتِعْطَافِها . فحَمَلَها وقذَفَ بها فى البَحْرِ ، واسْتمرَّتْ تطْحَنُ ، وتُخْرِجُ مِلْحاً . ولا زالَتْ تَطْحَنُ لِلآنَ . وهكذَا صارَ البَحْرُ مِلْحاً .